تلك أيام خلت

للدكتور زكي مبارك

في الكلمة الماضية دونتُ بعض ما ربحت وبعض ما خسرت؛ وسأقصر كلمة اليوم على التنويه بأمور ينفعني النظر فيها من وقت إلى وقت ، فإن صح أني قليل الاعتبار بحوادث الأيام ، فقد يكون في القراء من ينتفع بالعبرة التي يسوقها هذا الحديث . وآفة الأدب في بلادنا أن الأدباء لا يتحدثون عن عيوبهم إلا قليلاً ، وهذا التحرز من سرد العيوب قد يوهم فريقاً من القراء بأن الأدباء تعصمهم مواهبهم من الوقوع في الأغلاط والهفوات . ولو أنهم عرفوا أن الأديب يخطئ ويصيب كسائر الناس ، لأدركوا أن التفوق في الأدب ميسور لكل من يتوجه إليه ، وهو مزوَّدٌ بقوة العزيمة ، ورجاحة العقل ، وصدق الوجدان .

فما الذي فاتني من الفوز والنصر في السنة الماضية حتى أرجع على نفسي باللوم والتثريب ؟

أعتقد أني ضيعت على قلمي فُرصاً لن تعود : كنت في العام الماضي مرهف الإحساس ، ولكن قلمي لم يستفد من ذلك . والكاتب المخلص لفنه لا يترك عواطفه تتبخر وتضيع ، وإنما يسارع إلى الاستفادة من فَورتها ، فيكتب وهو مشبوب القلب ليستطيع السيطرة على القلوب ...

وإذا ألف أن يسمع « القفش » والضحك في مجلس من المجالس وعلى هيئة من الهيئات فليس في وسعه أن يتخيل « تنكيتاً » يدور في غير ذلك المجلس وعلى غير تلك الهيئة وبين أناس غير أولئك الناس

ولعل أكثرهم يفتر فاه من الدهش إذا قيل له إن الأوربيين « يدخلون قافية » كما يفغره دهشاً لو رأى خارقة من خوارق الطبيعة وانقلاباً في أوضاع الحياة ، وسمع الخرس ينطقون والعجم يعربون

وإنها لآفة « ذهنية » لا ضير منها على الأمم التي يجهلونها ولا يفهمونها ، ولكن الضير الأكبر منها على من يُحرمون نعمة النظر الصحيح إلى حقائق الوجود

عباس محمود العقاد

وما أقول : إني انصرفت عن مصاولة الأزمات الوجدانية، فقراء « الرسالة » يذكرون أني كنت أواجههم بهذه الشؤون من حين إلى حين ، ولكني أعترف بأني ظلمت نفسي أقبح الظلم حين تغافلت عن تسجيل ما كان يثور في صدري من العواطف في بعض الأحايين .

حدثني الأستاذ الزيات قال : إن بعض القراء لا يستريحون إلى بعض ما تكتب في الشؤون الوجدانية ، وإن من الخير لمن كان في مثل مركزك أن يقف عند حدود الأدب الرزين !

و « بعض القراء » هم المشايخ الذين يسمُرون في نادي « الرسالة » ، ليجادلوا الزيات فيما يباح وما لا يباح من المذاهب والآراء ، وفيهم من لا يرضى عن كاتب مثلي إلا إن شغل نفسه بشرح « دلائل الخيرات » !

والحق أني راعيت رأي هذا الصديق بعض المراعاة ، والزيات صديقٌ أمين ، والانتفاع برأيه من أوجب الفروض ، ولكن كيف كانت العواقب ؟

أضمت على نفسي وعلى « الرسالة » فُرصاً لن تعود ... وهل أملك ردّ العواطف التي ثارت ثم خمدت في تيارع السنة الماضية ؟ « تلك أيامٌ خلتْ » ، ولن يردّها أسفٌ ولا بكاء !

إذا صح أني مفطور على إحساس الفرح والحزن في الحياة ، وإذا صح أني أقوى ما أكون حين أفرح أو حين أحزن ، فكيف يضيق صدر وطني وزمني عن سماع سَجعاتي وزفراتي ؟ وبأي حق يحرُم عليّ ما يباح للشعراء في جميع البلاد ؟

وهل تصدّقون أن الناس يكرهون حقيقةً أن نحدثهم عن أزمات الأفئدة والقلوب ؟

وهل صَدَق الأستاذ فكري أباظه حين حدّث الناس عن طريق المذياع باندهاشه من أن يسمع أغاني الهجر والوصل والدنيا في حرب ؟

وهل تظنون أن هذا الخطيب يقضي أيام الحرب في التخشُّع والقنوت أمام المحراب ؟

الدنيا في حرب ، وسيعقُب الحربَ سلامٌ بعد عام أو عامين ، ولكنكم تنسون أن الشاعر يعاني حرباً لا يصدُ شرها عنه غير الموت ، إن صح أن الموت يريح أرواح الشعراء من البلاء بالتفكير في أسرار الوجود

وما الذى يوجب الخضوع للأفكار العامية التى تتوهم أن الحرب تقدر على زلزلة السريرة الإنسانية ؟

الحرب تستطيع أن تصنع بالسريرة الإنسانية ما تصنع العواصف بأمواج المحيط ، فهى تُقلقل المنافع من وقت إلى وقت ، ولكنها تعجز عن اقتلاع ما فى السرائر من جذور الحب والبغض والهدى والضلال

والشاعر ينظر إلى من حوله من الناس نظرات مختلفات : فيرى بكاءهم مرةً بكاء أطفال ، ويراه مرةً زئير أسود . فالطفل لا يذكر من الحرب غير تنقل « التسعيرة » من وضع إلى وضع ، ويكون مَثَله مَثَل الطباخ الذى ارتاع لارتفاع أسعار القطن لأنه رأى ذلك نذيراً بارتفاع أسعار الزيت !

أما الرجل — والشاعر الحق هو الرجل الحق — فيرى أن الحرب لا تكون سيئة العواقب إلا إن استطاعت بفواجعها أن تقتلع من السريرة الإنسانية جذور الإحساس بمعانى الحياة . وهل فى الحياة معانٍ أشرف وأفضل من الحرص والشره والطمع فى انتهاب أطايب الوجود ؟

شغلتُ نفسى مرةً بتأريخ ملاهى الحى اللاتينى فى باريس ، فجمعت أكثر من خمسين كتاباً تحدث مؤلفوها عن ملاهى ذلك الحىّ ، ثم راعنى أن ألاحظ أن تلك المؤلفات كُتبت قبل الحرب العالمية ، فعرفت أن الباريسيين بعد تلك الحرب فقدوا شعورهم بتذوق الحياة فلم يعودوا يهتمون بتسجيل ما يصادفهم من النعيم فى ذلك الحىّ البهيج

فإن استطاعت الحرب الحاضرة أن تشغلنا عن أحاديث الهجر والوصل فسيكون معنى ذلك أننا صرنا أطفالاً ضعافاً لا يهمهم من الدنيا غير اعتدال أسعار « اللُّعب والصواريخ » !

أقول هذا وفى مكتبى مقال لم يسمح بنشره الأستاذ الزيات ، لأنه خشى أن يفتح لخصومى باب الأقاويل والأراجيف ، وهو مقال سجلت فيه إحساسى بفراغ شارع فؤاد من أقدام اللاح يوم تجربة النارة الجوية . فهل من الحق أن الحرب رجّعت مصر رحمةً تذهب بما يملك شعراؤها من عواطف وأحاسيس ؟

وهل من الحق أن أهل مصر لم يعودوا يأنسون بغير حديث البقول ؟

أعترف بأنى توجعتُ مرة على صفحات الرسالة من غلاء الورق ، وذلك توجُّع مشرّف ، لأن الأمة التى تشكو غلاء الورق هى الأمة التى تُعزّ الأفكار والعقول ، وكل شىء فى دنيانا من الكماليات إلا الورق فهو عندنا من الضروريات ، والمصرىُّ المثقَّف قد يكتفى بالقليل من القوت ، ولكنه لا يستغنى أبداً عن زاده من الحِبر والورق

ونحن قومٌ آذنتنا الظروف الدولية أقبح الإيذاء ، فليس لنا من السيطرة الاقتصادية أو الحربية ما للأمم الديمقراطية أو الديكتاتورية ، ولكن لنا مع ذلك سيطرة عقلية نصول بها فى أقطار الشرق . ولو شئتُ لقلت إننا نملك من هداية الشرق ما لا يملك الإنجليز والفرنسيس والألمان ، ولهذه الدولة الروحية سلطانٌ يحسدنا عليه من يملكون فى تصريف السلم والحرب ما لا نملك ، فليس من العجيب أن نشكو غلاء الورق فى زمن لا يشكو فيه السيطرون غير غلاء القُوت

والشرق ينتظر أن نحدثه عن نفسه بما لا يعرف

فكيف يغيب عنا أن من الواجب أن نكون أفصح من يذيع فى الشرق أحاديث السريرة الإنسانية ؟

استيقظوا ، أيها الغافلون ، واعلموا أنكم لن تكونوا شيئاً مذكوراً إلا إذا استطعتم أن تشغلوا الشرق عما فى الغرب من ألحان وأغاريد

هل فكر واحد منكم فيما عرف الشرقيون من الآداب الفرنسية والإنجليزية ؟ وهل خطر فى بالكم أن فى الأقطار الهندية والأفغانية والإيرانية أقواماً يقرأون عن العقول الفرنسية والإنجليزية أضعاف ما يقرأون عن العقول المصرية ؟ وهذا يقع مع أن مصر فى هذا العهد تستطيع أن تكون تيارة ترجّع ألحان السماء لو تركت التزمت المقوت الذى يفرض التناضى عن أحاديث القلب والوجدان

سألنى أحد الأصدقاء منذ أيام عن الظروف التى ألفت فيها كتاب التصوف الإسلامى وهو يتوهم أننى لم أذق قطرة من رحيق التصوف ، فقلت : ذلك كتابٌ زكّيتُ به عن قلبى . فقال : وهل على القلب زكاة ؟

فقلت : آفة الآفات أن نظن أن الزكاة لا تجب على القلوب والأحاديث الوجدانية التى أهتف بها من حين إلى حين هى نفحة من نفحات التصوف ، فكيف يراها بعض القراء من مظاهر الفتون ؟ وكيف يرى صديقى الزيات أن نشرها يقوى حجة خصومى وأعدائى ؟

بل كيف استبحت ظلم نفسي فلم أهجر مجلة الرسالة لأتحدث عن فؤادي بما أشاء ؟

تلك أيامٌ خلَت ! فمتى أرجع إلى مناجاة أوهامي وأحلامي ؟

إن الحديث عن الظواهر لا يحتاج إلى عبقرية ، أما الحديث عن ضمائر النفوس وسرائر القلوب فلا ينهض به غير أفذاذ الشعراء . فمتى أجد آذاناً تطرب لأسجاع الروح المفتون بتهاويل الوجود ؟ ومتى أجد قلباً يسمع وسواس قلبي ؟ ومتى أجد روحاً يأنس بغناء روحي ؟

هل سمعتم بما صنعت وما تصنع مشيخة الأزهر ؟

هي تستعدى الحكومة المصرية على كل من يطبع كتاباً دينيًّا تقع فيه غلطة نحوية أو صرفية أو إملائية !

فهل علمتم في يقظة أو في حلم أن مشيخة الأزهر شغلت نفسها بطبع طائفة من الكتب الدينية ؟

كذلك يصنع بي خصومي وأعدائي ، فلا هم يؤدّون زكاة القلوب ، ولا هم يسكتون عمن يؤدي زكاة القلوب

زرت السيد آل كاشف الغطاء في النجف على غير معرفة فقال : من أيّ بلد قدمتَ أيها السيد ؟ فقلت : قدمت من وطن ابن الفارض . فقال : وطن الذي يقول :

كل من في حماك يهواك لكن أنا وحدي بكل من في حما كا

فقلت : بل وطن الذي يقول :

أنت ورد فهَب محبّك شوكا أترى الورد عاش من غير شوكِ

فإن كنتُ من الشوك فلا بأس ، فالورود لا تعيش إلا في حماية الأشواك ، والروح اللطيف لا يعيش إلا في قفص من الجسم الكثيف

وسمعت في الأيام الأخيرة أن إحدى المجلات تنوشني منذ أسابيع فرفضت الاطلاع على تلك المجلة لأني أخشى أن تروضني على الشراسة والحقد ، وأنا أحب مسالمة الناس لأفرُغ لمحاربة قلبي ، القلب الجامح الذي يقهرني على الوفاء لأقوام لا يعرفون معنى الوفاء

ثم ماذا ؟ سأتحدث في الأسبوع المقبل عن لواعج وشجون يضيق عنها حديث اليوم

زكي مبارك

الرســـالة في سنتهـــا الثـــامنة

دخلت الرسالة عامها الثامن وهي أقوى ما تكون اعتمادا على فضل الله وعطف أنصارها في تذليل كل عقبة

وعلى الرغم من استحكام أزمة الورق وغلائه الفاحش في العالم كله ستستمر الرسالة على تخفيض اشتراكها ومنح هداياها وإصدار عددها الممتاز — ففي مدة هذا الشهر سيكون الاشتراك في الرسالة مميزاً بما يأتي :

٦٠ ستون قرشاً عن سنة كاملة في مصر والسودان تدفع من الآن إلى آخر يناير ويكون للمشترك الحق فيما يساوي خمسة عشر قرشاً من الكتب القيمة

٥٠ خمسون قرشاً عن سنة كاملة في مصر والسودان للمعلمين الالزاميين وطلاب المعاهد والمدارس تدفع في أثناء المدة المذكورة ويكون للمشترك الحق كذلك فيما يساوي خمسة عشر قرشاً من كتب الهدايا. ويجوز لهم دفع الاشتراك خمسة أقساط متتابعة.

والاشتراك في البلاد العربية كالاشتراك في مصر من حيث القيمة والمدة والهدايا ، وإنما يدفع المشترك فيها فرق البريد وهو أربعون قرشاً في العراق ، وعشرون قرشاً في سائر البلاد العربية

الـــرواية

أما الرواية فقد أدغمناها مؤقتاً في الرسالة حتى يسهل ورود الورق فتصدر منفردة بشكل أفخم ونظام أجمل . وستعنى الرسالة فيما تُعنى به من الأمور الجديدة بالأقصوصة فيكون في كل عدد منها أقصوصة أو أقصوصتان من أروع ما يوضع أو ينقل .

الاشتراك في الرسالة الآن يضمن لك دائرة معارف ومكتبة